80 تشكيليا عالميا في بينالي القاهرة الدولي

فنانون من 52 بلدا يحلقون بالخطوط والألوان فوق هواجس التصادم والصراع الحضاري

من عناصر الفن الهامة والضرورية هي الجرأة، جرأة تخول للفنان الذهاب بعيدا في تجربته الجمالية، كما تعطيه دفعا لتأسيس تصوراته ورؤاه ونقده وأفكاره تجاه الواقع. والجرأة هي السمة الأبرز في بينالي القاهرة هذا العام، حيث تنوعت الأعمال الفنية المشاركة في اشتغالاتها بين النحت والرسم على تنوع أنماطهما. ولكن هذا التنوع يصب في النهاية في صالح التوحد ضد الصدام الحضاري، الذي بات سمة هذا العصر.

تشرذم الأعضاء البشرية وسيطرة الدخان (يوريس فان دو مورتل، بلجيكا)

شريف الشافعي
كاتب مصري

القاهرة – يحمل بينالي القاهرة الدولي للفنون في دورته الـ13 المنعقدة حاليا أحلاما فنية عريضة كادت تتوقف في ظل غياب البينالي لمدة تسع سنوات، وتشهد التظاهرة التشكيلية الكبرى تنوعا في الرؤى الإبداعية والاتجاهات المعبّرة عن فناني العالم من أجيال مختلفة، ويجتمع المشاركون على عشق الشرق وسحره، وتعزيز التواصل الإنساني، والانتصار للكوكب المختنق المأزوم.

وحده الفن الصادق، الطليعي، التنويري، بإمكانه إزالة الفواصل بين الأزمنة والأمكنة، وإذابة الفوارق بين البشر ليتحدثوا لغة واحدة مشتركة، تفيض بالدفء والحميمية والسلام، ولا مجال فيها للمنافسات والمشاحنات والاختلافات العرقية والجنسية والدينية والمذهبية وغيرها.

على هذا التصوّر الواسع لروح الفن ودوره الجمالي والتهذيبي في ترقية الحواس، يراهن فنانو مصر والعالم المشاركون بأعمالهم في "بينالي القاهرة الدولي الـ13" المنعقد في القاهرة على مدار شهرين حتى 10 أغسطس المقبل في ثلاثة مواقع، هي "قصر الفنون" و"متحف الفن الحديث" بالأوبرا و"مجمع الفنون" بالزمالك.

معترك الحياة

اتخذ بينالي القاهرة الدولي 2019 عنوانا دالا هو "نحو الشرق"، في إشارة واضحة إلى أن الدورة الجديدة التي يعود بها البينالي إلى الظهور بعد غياب استمر منذ ديسمبر 2010 هي دورة استثنائية، فهي محطة التوجّه إلى الشرق بعيون منفتحة على الآخر ومعطياته، وأصابع مهيأة للتشابك، وأذرع مستعدة للاحتضان.

التقت إرادة ثمانين تشكيليا من 52 دولة (منهم سبعة مصريين) على نسف هواجس التصادمية ونظريات الصراع الحضاري الخائبة، وإفساح المجال للإنسانيات الأصيلة الواحدة والخيالات المشتركة، وبدت القوة الناعمة سيدة للمشهد بتعزيزها التفاهم بين الشعوب من خلال الفنون والثقافات، وتقديم حلول فنية وجمالية وفكرية لأزمات الإنسان المغترب في فضاءات العولمة والرقمية والتقنيات، والعمل النوعي الجاد على إنقاذ الكوكب من الانهيار والدمار الشامل بفعل الشرور والحماقات، وتقديم المحبة مرسومة بألوان الطيف على طبق من ذهب.

وسجلت التظاهرة القاهرية الكبرى، التي تأسست دورتها الأولى في عام 1984، حضورا طاغيا للأعمال التجريبية في مجالات الفنون التشكيلية المختلفة من تصوير وفوتوغرافيا ونحت وغرافيك وفيديو وأعمال مركبة ومجسمات وغيرها لمبدعين من سائر القارّات، حملت أناملهم أحدث الابتكارات، بما يشكل إضافة حقيقية إلى الحركة التشكيلية بمصر وفرصة للاحتكاك المثمر والتفاعل الخلاق.

رسمت أعمال البينالي، الذي بلغت جوائزه مليون جنيه مصري (أكثر من 60 ألف دولار) معاناة الإنسان المعاصر وهمومه في معترك الحياة بتفاصيلها اليومية الطاحنة وقيمها المادية الاستهلاكية وقضاياها المتفجرة، وانفتحت الأعمال في الوقت ذاته على الموروث الحضاري لاسيما الشرقي والجذور الأصيلة التي تعيد للبشرية كيانها وعنفوانها.

في لوحاته، قدّم الفنان اللبناني أيمن بعلبكي (44 عاما) رموزا لأبنية ولشخصيات مجهولة من قادة الصراعات الدائرة خصوصا في منطقة الشرق الأوسط، وصوّر براميل البارود المتفجرة وقد حملت كلمة النهاية للعالم الذي بات مفككا تماما، داكن الألوان، قاتم المشاعر.

ومن خلال تجربته في فنون الوسائط المادية، قدّم المصري أحمد البدري (الحاصل على جائزة البينالي) تكويناته المجسمة المحيلة إلى طواحين الهواء والمواتير ومدافع الحروب والآلات الميكانيكية الضخمة، وغيرها، من شواهد الواقع الخشن الراهن، الذي أفقد الإنسان مشاعره ونبضه الحيوي.

دوائر حائرة

من بلجيكا، صوّر الفنان يوريس فان دو مورتل (الحاصل على جائزة النيل الكبرى) تشرذم الأفراد وتشتتهم المادي والمعنوي، مبرزا كيف بات الإنسان العصري الممزق مجموعة من الأعضاء المتناثرة هنا وهناك، وكيف حالت الأدخنة الكثيفة السوداء دون الرؤية البصرية ورؤية البصيرة.

وفي العمل الثنائي المركّب لكل من جوليا نوينهاوزن وآستريد ميتسه من ألمانيا، امتلأ الفراغ البصري بنثارات ومتعلقات مادية تلخص استعمالات الإنسان وتحركاته المبرمجة في صندوق حياته الضيق، وعمره القصير الخالي من المفاجآت.

وبدوره، جسّد الفنان السوري محمد حافظ صورة العالم في مرآة وهمية محاطة بإطار سميك، ويبدو الأفق منسدًا أمام مركبة السير الخالية من الآدميين، والتي لا تقوى في الوقت نفسه على التقدم ولا العودة إلى الوراء.

في عمله التجريبي المبتكر، اقترح الفنان بريجيته كوفانس من النمسا (الحاصل على جائزة البينالي) دوائر نورانية متشابكة أطلقها على الحائط، راصدا ضفاف المتاهة الكونية ودوّامات الإبحار في وجود الحيرة والخلخلة الأبدية والكهارب العمياء.

وفي تكوينه الميكانيكي المركّب، أبرز الفنان يوهانس فوجل من ألمانيا اصطدام أدوات الطعام بالأطباق محدثة صخبا في ظل غياب الأطعمة وسيادة الفوضى والرغبة في الاعتراض، وحنّط الفنان أومار بول من موريتانيا أجنحة الطائر وريشه بعد انحسار الفضاء وحلول الفناء، فيما جسّد المثّال الفرنسي إيمانويل توسور أبنيته الحجرية الخالية من السّكّان بعدما تحوّلت إلى أنقاض.

استطاع بينالي القاهرة الدولي في دورته الثالثة عشرة هذا العام أن يفتح صفحة جديدة من صفحات الحدث التشكيلي الأبرز في مصر، وأعاد إلى الأذهان حقبا منقضية كانت تستضيف فيها مصر أعمالا أصلية لكبار الفنانين من سائر أرجاء العالم، من أمثال سلفادور دالي وبيكاسو وفان جوخ وغيرهم.

بينالي القاهرة الدولي 2019 اتخذ عنوانا دالا هو «نحو الشرق»، في إشارة واضحة إلى أن الدورة الجديدة استثنائية

سير الكتّاب بين الحقيقة والزيف

عندما ندوّن سيرتنا، هل نقول الحقيقة كاملة، أم نخضعها لأهوائنا ونرجسيتنا فنجمّلها ما أمكن التجميل، ونغفل عن حقائق كثيرة بدعوى أنها تمسّ حياة من نعرف، لكون الكتابة عن الذات هي أيضا كتابة عن الآخرين؟

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

نشفق على بعض رجال السياسة حين يدّعون النضال ضد الجور والعسف في هذه الحقبة أو تلك وينسبون إلى ذواتهم الكريمة بطولات وهميّة، ونحن أولى بالشفقة. نشفق على السياسي لأنه يُقسِم ثم يَحنَث، ويَعِد ثم يُخلِف، ويُعاهِد ثم يَنقُض، رغم أن ذلك من طَبيعة عمله كما بيّن مكيافيلي وباسكال وسارتر، لأن "الصدق، كما تقول حنة أرندت، لم يكن قط في عداد الفضائل السياسية، فالكذب كان دائما وسيلة مشروعة في الشؤون السياسية"؛ وننسى أننا، نحن الكتاب، لا نَفضُله في شيء، فنحن نكذب حتى وإن كنا نمارس حرفة لا تضطرنا إلى الكذب والمغالطة، فنجمّل نشأتنا، ونزيّن تكويننا، ونُشيد بمواقفنا، ونعدّد فتوحاتنا، ونَجحد حقّ من سادنا، ونغفل عن ذكر الجوانب المظلمة في حياتنا.

يتبدى ذلك في الحوارات الصحافية التي تعقد معنا، وفي السير الذاتية التي ندوّنها، وأغلبها لا يخلو من تلفيق وتزوير وتعتيم؛ فنحن نخجل أن نبوح بكل ما وسم مسيرتنا، خوفا من خدش حياء الأقرباء وربما فضح أسرار يتكتمون عليها، لأن الكتابة عن الذات هي أيضا كتابة عن الآخرين، ولكننا لا نخجل من مجانبة الحقيقة ومن عاشرونا لا يزالون على قيد الحياة، فنشوّه حقائق، ونبتر معلومات، ونغمط فضل الآخرين علينا بلا حياء. وذلك ما عناه غابرييل غارسيا ماركيز بقوله "كل كتابة عن الذات هي بنية أدبية، كذب مطليّ بماء الذهب".

لكم تذرّعنا بسطوة السلطة في شتى أوجهها لنبرّر سكوتنا عن جورها واستبدادها، وانصرافنا إلى مواضيع لا تُحْلي ولا تُمرّ إيثارا للسلامة، ولكن بمَ نبرّر مجانبَة الصدق في ما نكتب ونصرّح وندوّن، حتى ونحن في معزل عن السياسة؟ هل من العار أن ينشأ الواحد منا في أسرة مُعدَمة بقرية مُهمَلة أو حيّ بائس؟ وهل من العيب أن يعترف بأن مدرّسيه أجمعوا على كسله وخموله وضعف تحصيله؟ وهل من الشّيْن أن يقرّ بأنه وجد العون والنصح في بداياته من هذا الشخص أو ذاك، أو أنه جاء إلى الكتابة عن طريق الصدفة، أو أن نصوصه الأولى لم تكن تشي بموهبة؟

عندما نقرأ سير الأعلام في الغرب لا نملك إلا أن نُعجب بنبرة الصدق التي يتوخّونها في سرد سيرتهم، دون مساحيق، فهم لا يستحون من ذكر نقائص وأخطاء شابت مسيرتهم، فتشرشل يعترف في مذكراته بأن درجاته المدرسية كانت من الضحالة ما حمل أباه على القول "نتائجك المدرسية يا ابني لعنة للذكاء"، وأينشتاين يروي أن أساتذته في مونيخ كانوا ينعتونه بالكسل والضعف في المواد العلمية، وقس على ذلك بعض الكتاب أمثال زولا، وجان كوكتو، وجان جيونو، ومالرو الذين لا يخجلون من سرد الظروف التي كانت سببا في انقطاعهم المبكّر عن الدراسة، وحتى طردهم منها شأن بلزاك، بل إن جان جيني لا يجد غضاضة في الإقرار بأنه بدأ السرقة في سن العاشرة، والكتابة وهو في السجن.

بعضهم لا يكتفي بالكشف عما عاشه من خيبات، بل يعرّي حتى عملية الخلق لديه، فلا يدّعي في هذه أو تلك بطولة ولا عبقرية. هذا مثلا الأميركي جورج ساندرز لا يخجل أن يروي حياته بتفاصيلها، منذ أن كان تلميذا خاملا لا حلم له سوى أن يصبح نجم "روك"، فقد كان يكره المطالعة ولم يقرأ سوى "أطلس هازًا كتفيه" لآين راند بإيعاز من صديق، وكان يمينيًا يصوّت لرونالد ريغان.

جورج ساندرز ممن رووا حياتهم دون خجل

راودت ساندرز رغبة الكتابة في آسيا لسبب لا يذكره، والتحق بالمجاهدين في أفغانستان رغبة في تقليد هيمنغواي دون أن تأتي مغامرته بما كان يرجو، ثم حاول تقليد سومرست موم دون جدوى، واضطر بعد عودته معدما من رحلته الآسيوية إلى ممارسة حِرف عديدة، من قصّاب وحاجب وساقف مبان إلى حارس عمارة يحبر الأوراق ليلا متشبّها تارة بجويس، وطورا بمالكوم لوري، وأنتج رواية لم تَلْقَ الرواج المنشود. ثم التحق بورشة كتابة لم يتعلّم فيها كتابة الرواية وإن كان لها الفضل في مقابلة المرأة التي ستصبح شريكة حياته، ما اضطره بعد الزواج إلى العمل محرّرا تقنيًا في شركة لصناعة الأدوية لكسب قوته وقوت أسرته، واقتنع بأنه لا يملك ما يمكن أن يجعل منه كاتبا، خصوصا أنه لا يقرأ إلا قليلا، إلى أن جاء يوم وقعت فيه زوجته على جذاذات كان يخطها في أوقات فراغه، أضحكتها كثيرا، فقال في نفسه "لم لا أكتب نصوصا مُسلّية، بدل الحرص على التشبه بالكبار الغابرين؟".

وفي عام 1996 أقبل على تأليف "عظمة مدينة ألعاب وانحطاطها" وهو كتاب مزج فيه القصة بالرواية، والهزل بالجد، والواقع بالفنتازيا، والثقافة الشعبية بالحداثة، وجويس بال سيمبسون أبطال سلسلة الصور المتحركة، فأحدث دون تنظير مسبق ثورة في الكتابة السردية الأميركية، وقطيعة مع الأدب الروائي السائد، ونال اعتراف النقاد والأدباء. ابتسمت له الحياة بعد سلسلة من الفشل حين فتحت له إحدى الجامعات أبوابها، ثم نال الثراء والشهرة العالمية بفضل روايته الأولى "لنكولن في باردو" (وباردو في بوذية التّبت هي حيّز بين الحياة والموت) بعد أن فازت بجائزة مان بوكر عام 2017 واحتلت موقعا متميزا في قائمة الكتب الأكثر مبيعا.

عندما نقرأ سير الأعلام في الغرب لا نملك إلا أن نُعجب بنبرة الصدق التي يتوخَّونها في سرد سيرتهم

كل ذلك يعترف به ساندرز دون مواربة، في أحاديثه ولقاءاته، شأن السواد الأعظم من الكتاب، أولئك الذين يملكون الجرأة على البوح، وحتى على تعديل تصريحاتهم إن حادوا عن الحقيقة في فترة ما. جاء في مذكرات ماركيز قوله "لا أذكر اليومَ عددَ الحوارات التي كنت ضحيَّتَها طوال خمسين عاما في كل مكان من العالم. معظم تلك التي لم أستطع تجنّبها، بغضّ النظر عن الموضوع الذي تطرحه، ينبغي اعتبارها جزءا هامًا من أعمالي التخييلية، لأنها ليست سوى أشياء مختلَقة عن حياتي".